

أَكْثَرُ الْمُعْتَقَلِينَ يَتَحَاشَوْنَ التَّعَامُلَ مَعَ النِّسَاءِ عُمُومًا إِلَّا فِي حَالَاتِ الضَّرُورَةِ كَأَن يَكُونَ الْجُنُودُ خُبَاءً فَيَضْطَرُّ لِلتَّعَامُلِ مَعَهُنَّ، وَقَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ مَقْصُودًا مِنَ الْإِدَارَةِ لِدَفْعِ الْمُعْتَقَلِينَ إِلَى الْإِكْتَارِ مِنَ التَّعَامُلِ مَعَهُنَّ لِبِنَاءِ عِلَاقَةٍ مَعَ الْأَيَّامِ قَدْ تُسَاعِدُهُمْ فِي اخْتِرَاقِ الْجِدَارِ الْإِيمَانِيِّ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَيَبْنِي تَحْقِيقَ أَهْدَافِهِمْ. أَدْرَكْتُ إِدَارَةَ الْمُعْتَقَلِ أَنَّ الْمَرْأَةَ أَقْدَرُ دَائِمًا عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مَا لَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ، وَعِنْدَ التَّقْيِيدِ كُنَّ يَتَعَمَدْنَ الْإِحْتِكَاءَ بِأَجْسَادِ الْمُعْتَقَلِينَ وَيُلَامِسْنَهُمْ بِمَوَاضِعَ حَسَّاسَةٍ مِنْ أَجْسَادِهِنَّ، فِي جَوْ مَنَوَتِرٍ مُقْلِقٍ مَشْحُونٍ بِالشَّهْوَةِ قَدْ غَرَزَ الشَّيْطَانُ فِيهَا رَايَتَهُ وَنَادَى الْجَمِيعَ: هَلْ مِنْ مُبَارَزٍ؟ فَإِذَا رَفَضَ الْمُعْتَقَلُ جَاوُوا بِمَجْلَةٍ أُخْرَى أَقْلَ قَلِيلًا، فَإِذَا رَفَضَ جَاوُوهُ بِمَجْلَةٍ فِيهَا رُسُومٌ جَنَسِيَّةٌ وَلَيْسَتْ صُورًا، كَانُوا يُوزَعُونَ عَلَيْنَا رَوَايَاتِ الْحُبِّ وَالْغَرَامِ لِيَرَوْا مَنْ هُوَ الْمُهَيَّأُ لِلِانْتِقَالِ بِهِ إِلَى الْخُطْوَةِ التَّالِيَةِ. لَقَدْ كَانُوا مُوقِنِينَ أَنَّنَا سَنَسْتَسَلِّمُ فِي النِّهَايَةِ لِأَنَّ قَطْرَةَ الْمَطَرِ لَا تَفْتَتِ الصَّخْرَةَ بِالْعُنْفِ بَلْ بِالتَّكْرَارِ! كَتَّفَ الْأَمْرِيكَانُ اسْتِخْدَامَ الْعُنْصُرِ النِّسَائِيِّ فِي التَّحْقِيقَاتِ، مُعْتَقِلٌ آخَرَ حَاوَلَتْ الْمُحَقِّقَةُ إِغْوَاءَهُ فَلَمْ تَنْجَحْ، فَأَدْخَلَتْ يَدَهَا دَاخِلَ سَرْوَالِهَا الدَّاخِلِيِّ ثُمَّ أَخْرَجَتْ دَمَ الْحَيْضِ وَمَسَحَتْ بِهِ وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ. جَاءَنِي مُعْتَقِلٌ فِي مُقْتَبِلِ الْعُمْرِ، ثُمَّ قَالَ لِي كَأَنَّهُ يَجْرُ الْكَلَامَ جَرًّا: تَعِبْتُ! طَلَبْتُ الْجُنْدِيَّةُ مِنِّي إعْطَاءَهَا الْمِكْنَسَةَ بَعْدَ أَنْ انْتَهَيْتُ مِنَ التَّنْظِيفِ، نَاوَلْتُهَا الْأَغْرَاضَ فَمَسَحَتْ عَلَى يَدَيَّ مَسْحَةً حَانِيَةً ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيَّ بِابْتِسَامَةٍ تَحْمِلُ أَلْفَ مَعْنَى. لَقَدْ ضَاقَ بِالْإِغْرَاءِ الْمُسْتَمَرِّ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، أَصْبَحَتِ الْجُنْدِيَّاتُ يَقَطْعُنَ الْعُنْبَرِ ذَهَابًا وَإِيَابًا كَحَرَكَةِ الْبَنْدُولِ الدَّوُّوبَةِ دُونَ تَوَقُّفٍ، تَغْنُجُ مُثِيرٌ يُوقِظُ الْعَيْنَ الطَّامِحَةَ وَتَسْتَدْعِي الشَّهْوَةَ الْمُخْتَبِتَةَ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ، هَارِيَةً مِنَ الْجَانِبِيَّةِ الَّتِي تَدْعُوهَا إِلَى التَّمَرُّدِ عَلَى الْفَضِيلَةِ وَهَدْمِ أَسْوَارِ الْبُيُوتِ لِيَتَحَوَّلَ فِرَاشُ الزَّوْجِيَّةِ الطَّاهِرِ إِلَى مَرَعَى مُبَاحٍ لِكُلِّ سَائِمَةٍ، وَمَنْ الَّذِي يَدْعِي أَنَّ جَانِبِيَّةَ الْمَرْأَةِ شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ التَّعْذِيبِ؟ إِنَّهَا الْإِنْهِيَارُ دُونَ تَرْكِ أَيِّ عِلَامَةٍ لِلْأَلَمِ، مَنْ يَقْدِرُ عَلَى كَبْحِ جِمَاحِ قَلْبِهِ كَمَا يَكْبَحُ نَظْرَانِهِ عَنْ هَذَا الْجِنْسِ الْعَارِمِ الَّذِي يَنْدَفِقُ شَوْقُهُ عَلَى قُلُوبٍ تَتَّقِدُ بِالنُّورَةِ؟ تَسْتَهْوِيهِ وَتُغْوِيهِ حَتَّى إِذَا اسْتَوَلَى حُبُّهَا عَلَى قَلْبِهِ، تَمَنَعَتْ لِنَسِيطِرَ عَلَيْهِ بِحُبٍّ مَجْنُونٍ يَقْلِبُهُ بَيْنَ يَدَيِ الْغَرَامِ وَالْهِيَامِ. وَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ كَانَ يَعْرِفُ عَنِ النَّظَرَةِ فَإِذَا بِهِ غَارِقًا فِي لُجَةِ الْبَحْرِ، قَدْ كُسِرَ مِجْدَافُهُ وَتَهْتَكَ قَارِبُهُ، وَمِنْ إِطْلَاقِهِ إِلَى تِمَادِيهِ، لَقَدْ وَعَظَنِي حَالُهُ مُوَظَّةً بَلِغَةً، جَعَلَتْنِي أَتَعَامَلُ مَعَ إِيمَانِي كَالْغُلَامِ الَّذِي يَتَعَامَلُ مَعَ عُصْفُورٍ فِي يَدِهِ، كَمْ مِنْ غَارِقٍ فِي مُسْتَنْقَعِ الرِّذِيلَةِ حَتَّى قِيلَ إِنَّهُ هَلَكَ، ثُمَّ يَسْأَلُ إِلَى مَسَامِعِهِ فِي اللَّحْظَةِ الْأَخِيرَةِ نُورَ اللَّهِ، وَكَمْ مِنْ حَافِظٍ لِلْقُرْآنِ وَعَالِمٍ بِالْعِلْمِ، وَإِذَا بِهِ يَجِدُ فِي قَلْبِهِ خَبِيئَةً كَامِنَةً تَسْقِطُهُ صَرِيحًا مُضَرِّجًا بِدِمَائِهِ. قَالَ بِنَظَرَةٍ حَاطِرَةٍ: "أَنَا مُؤْمِنٌ بِمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ هُنَاكَ، نَظَرْتُ إِلَيْهِ مُشْفِقًا وَقُلْتُ: "أَوَلَيْسَ الْإِيمَانُ هُوَ رُؤْيَا مَا وَرَاءَ الصُّورَةِ الْمَائِلَةِ أَمَامَنَا؟ الْإِيمَانُ هُوَ تَرْكُ الْحُلُوى الَّتِي أَرَاهَا مِنْ أَجْلِ الْمَائِدَةِ الَّتِي وَعَدَنِي بِهَا أَبِي غَدًا. فَيَرَى أَبَاهُ أَسْفَلَهُ مَا دَامَ يَدِيهِ مُبْتَسِمًا، فَيَقْدِفُ بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثَقَّةً بِأَبِيهِ الرَّحِيمِ الَّذِي لَنْ يَتْرُكَهُ يَهْوِي فِي وَادِي الْهَلَاكِ. لَنْ تَمْنَعَهُ عَنِ السَّعْيِ لِكَاسِ الْمَاءِ الَّذِي يُرْوِي ظَمَأَهُ. وَلَكِنِّي تَبْنُضُ الْكَلِمَةُ بِالْحَيَاةِ، لَكِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ إِحْيَاءَ الرُّوحِ الْمَيِّتَةِ أَوْ الْجَسَدِ الْمَشْغُولِ مَا لَمْ يَفْتَحِ الْقَلْبُ أَبْوَابَهُ لَهَا. الْجُنْدِيُّ يُمَسِّكُ الْمُعْتَقَلَ مِنْ ذِرَاعِهِ الْأَيْمَنِ وَالْآخَرُ مِنَ الْأَيْسَرِ، إِلَيْكَ النِّصْرُ مَعَ عِلَامَاتِ التَّشْكِيلِ: تَطْهَرُ كَسْرَابٍ خَادِعٍ. وَلَا يَأْمُرُهُ بَغْضَ الْبَصَرِ وَحِفْظِ الْفُرُوجِ دُونَ أَنْ يُبَشِّرَهُ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. فَعِنْدَمَا تَكُونُ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَتَخْلُو بِهِ وَحْدَهُ دُونَ شَرِيكِ، تَتَحَوَّلُ كَلِمَاتُهُ إِلَى نُورٍ يَخْتَرِقُ أَعْمَاقَ النَّفْسِ، وَإِلَى أَجْنِحَةٍ تَحْلِقُ بِكَ عَالِيًا، وَتَبْدَأُ الْأَصْوَاتُ الصَّاخِبَةَ لِلشَّهْوَةِ بِالتَّلَاشِي وَالضُّمُورِ، حَاوَلَ الْأَمْرِيكِيُّونَ جَعْلَ إِغْرَاءِ الْمَرْأَةِ سَهْمًا شَيْطَانِيًّا يُغْنِي كُلَّ الْمَعَانِي السَّمَاوِيَّةِ فِي قُلُوبِ الْأَسْرَى. وَإِذَا كَانَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ قَدْ فَرَّ مِنْ فِتْنَةِ الْقَصْرِ إِلَى ظُلْمَةِ السِّجْنِ، فَكَيْفَ يَمُنُّ وَجَدَ فِتْنَةَ الْقَصْرِ فِي ضَيْقِ أَسْرِهِ؟ وَهَلْ هُنَاكَ فِتْنَةٌ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُعْرَضَ عَنْ أَلْفِ امْرَأَةٍ تَقْدِمُ لَكَ قَلْبَهَا؟ وَلِلَّهِ دَرُ الْقُلُوبِ الَّتِي رَأَيْتُهَا ثَابِتَةً، أَمَامَ عُيُونٍ خَالِيَةٍ تَرْمِيهِمْ بِسَهَامِ نَظَرَاتِهَا دُونَ رَحْمَةٍ، وَلَوْ لَمْ أَرَهُمْ بِنَفْسِي لَطَنَنْتُ أَنَّهُمْ مِنْ خِيَالِ الْحِكَايَاتِ. قَدْ يَحْذَرُ الْإِنْسَانُ مِنْ عَدُوٍّ يَتَرَبَّصُ بِهِ أَمَامَهُ، لَكِنْ كَيْفَ يَتَعَامَلُ مَعَ الْأَعْدَاءِ الْقَادِمِينَ مِنْ كُلِّ اتِّجَاهٍ؟ عُنْفُ الْجُنُودِ وَرَقَّةُ الْجُنْدِيَّاتِ، قَطْرَةُ مِنْ أَنْبُوبِ الْإِثَارَةِ الْجَنَسِيَّةِ تَخْلُطُ مَعَ قَطْرَاتِ الْهَوَانِ فِي أَنْبُوبِ الْأَلَمِ، ثُمَّ يَخْرُجُ لِيَدْخُلَ مُحَقَّقَةً فَاتِنَةً تُخَفِّفُ عَنْكَ الْقُبُودَ وَتُخَلِّصُكَ مِنَ الْأَلَمِ مُبْتَسِمَةً مُتَغَنِّجَةً فِي غُرْفَةٍ لَا يَرَاكَ فِيهَا إِلَّا اللَّهُ! تَذَكَّرْتُ كَلَامًا لِأَحَدِ الْعُلَمَاءِ السَّابِقِينَ يَذْكُرُ أَنَّ الرُّومَ عِنْدَمَا كَانُوا يَأْسِرُونَ الْمُسْلِمِينَ يَجْعَلُونَ الْجَوَارِي الْحَسَانَ يَغْدِينَ وَيَرْحَنَ عَلَيْهِمْ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، حَتَّى إِذَا تَمَكَّنَ حُبُّهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ لَمْ يُمْكِنَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتْرَكَ دِينَهُ، وَلَوْ كَانَ فِي التَّنَزُّهِ فِي بَسَاتِينِ الْحَرَامِ خَيْرٌ لَرَأَيْتُ الْمُنْغَمِسِينَ فِي الْحَمَاءِ أَطْيَبَ النَّاسِ عَيْشًا وَأَهْنَأَهُمْ بَالًا، وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي الْعِيُونِ الزَّائِغَةِ وَالْقُلُوبِ النَّائِثَةِ وَالْأَرْوَاحِ الْمُسَرَّدَةِ، لَقَدْ أَيقَنْتُ أَنَّ الرِّيَّ الْأَعْظَمَ هُنَاكَ، وَمَهْمَا تَقَلَّبْتُ عَلَى فِرَاشِ الْأَلَمِ فَبِالْمَوْتِ يَنْتَهِي اللَّذَّةُ وَالْعَذَابُ. عُمْرِي قَصِيرٌ جِدًّا كَيَّ أَضْيَعُهُ بِالْوَهْمِ، أَخَذْتُ أَتَأَمَّلُ مِنْ بَيْنِ الْقُضْبَانِ ذَلِكَ الصِّغَرُ الْمُحَلِّقُ فِي الْعِلَاءِ، لَا يَرْضَى النُّزُولَ إِلَّا مِقْدَارَ مَا يَسُدُّ جُوعَهُ وَيُبَلِّ رِقَهُ ثُمَّ يَعُودُ ثَانِيَةً إِلَى التَّحْلِيقِ، إِنْ كَانَ عِشَاقُ الْأَرْضِ تَذِيلَ أَجْسَادِهِمْ حَنِينًا إِلَى صُورَةِ اللَّحْمِ الْفَانِيِ الْمُخْتَلَطِ بِالْدَمِ وَالصِّدِيدِ فَمَاذَا يَصْنَعُ مَنْ هَامَ بِالْجَمَالِ الْفَاتِنِ لِسَاكِنَاتِ الْخِيَامِ فِي الْفَرْدُوسِ؟ وَأَشْهَى عِنَاقَكَ ذَلِكَ الَّذِي يُلَامِسُ فِيهِ صَدْرُكَ صَدْرَ الْحُورِ، وَأَطْيَبُ مَجَالِسِكَ ذَلِكَ الَّذِي تَجْتَمِعُ فِيهِ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ضِيُوفًا عَلَى مَائِدَةِ الرَّحْمَنِ،

وَلَا حَيَاةَ تَطِيبُ دُونَ ذَلِكَ. لَقَدْ عَلِمْتُ كُلَّ هَذَا وَأَيَّفَنْتُ بِهِ فَصَوَّبْتُ نَظْرِي نَحْوَ الْحَقِيقَةِ وَشَمَرْتُ لَهَا، لَكِنِّي حِينَ وَضَعْتُ قَدَمِي عَلَى الطَّرِيقِ رَأَيْتُ الْقُرْآنَ تَلَجَّجْتُ فَوَبَّخَنِي لَنْ يَذُوقَ حَلَاوَتِي الْكَاذِبُونَ! لَقَدْ أَخْبَرْتُكَ بِذَلِكَ مَرَارًا. لِمَاذَا أَنْتَ مُتَزَمْتُ؟ لِمَاذَا تَتَعَامَلُ مَعَ الْمَرْأَةِ هَكَذَا؟ لِمَاذَا لَا تُصَافِحُنِي وَتَكُونُ إِنْسَانًا طَبِيعِيًّا مَرْنًا؟ اخْتِلَافُ تَصَوُّرَاتٍ، أَنَا أَرَى الْإِنْسَانَ الطَّبِيعِيَّ هُوَ الَّذِي يَحْتَرِمُ الْحَيَاةَ الزَّوْجِيَّةَ وَيَتَرَفَّعُ عَنِ الْفَوْضَى الْجَنَسِيَّةِ الَّتِي تَعِيشُهَا الْبَهَائِمُ! : وَلِمَاذَا خُلِقَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةً إِنْ كَانَتْ مَأْمُورَةً بِتَغْطِيَةِ هَذَا الْجَمَالِ؟ كَانَ لَهُ أَنْ يَشْتَرِيَ مِثْلَهَا قَائِمًا إِلَّا السَّرَقَةُ وَالرَّجُلُ السَّوِيُّ لَا يَرَى فِي جَمَالِ جَسَدِ الْمَرْأَةِ سِوَى السَّرِيرِ لَكِنَّهُ يَرَى فِي جَمَالِ رُوحِهَا الْكُونَ كُلَّهُ، لِذَلِكَ وَجِبَ تَغْطِيَةُ السَّرِيرِ لِيَتَجَلَّى جَمَالُ الْكُونَ. : لِمَاذَا تُرِيدُونَهَا تَسِيرُ فِي خِيَمَةٍ سَوْدَاءَ؟ مَا هَذَا التَّخَلُّفُ؟ : لَيْسَ بِأَكْثَرَ تَخَلُّفًا مِنْ إِلْزَامِ الْجُنُودِ وَالْجُنْدِيَّاتِ بِلباسٍ عَسْكَرِيِّ مُوحَّدٍ نَحِينُ تَفُوحُ مِنْهُ رَوَائِحُهُمُ النَّتْنَةُ فِي هَذَا الْحَرِّ الشَّدِيدِ إِنْ هَدَفَ الْإِلْتِزَامُ بِالْحِجَابِ أَنْبُلَ مِنْ هَدَفِ الْإِلْتِزَامِ بِالْمَلَابِسِ الْعَسْكَرِيَّةِ. قَالَتْ وَهِيَ تَكْظُمُ غِيظَهَا : إِنَّهُ الْقَانُونُ. وَكَذَلِكَ نَحْنُ نَلْتَزِمُ بِقَانُونِ اللَّهِ الَّذِي مَا شَرَعَهُ إِلَّا لِلْحِفَاطِ عَلَى طَهَرَةِ الْحَيَاةِ الْأُسْرِيَّةِ مِنْ بُرْكَانِ الْجِنْسِ الَّذِي إِذَا تَارَ دَمَرٌ. وَمَا الدَّلِيلُ أَنَّ قَانُونَكُمْ الْعَظِيمَ لِمَلَابِسِكُمُ الْمُعْطَرَّةِ صَحِيحٌ؟ هَلْ رَأَيْتَ الْمُشْرَعِينَ يُوقِعُونَ عَلَيْهِ بِنَفْسِكَ؟ هُنَاكَ آيَةٌ تَعْرِفِينَ مِنْ خِلَالِهَا ثُبُوتُ الْقَانُونِ مِنْ عَدَمِهِ. الْاسْتِهْزَاءُ بِالْحُكْمِ قَبْلَ الْبَحْثِ الْمُتَجَرِّدِ عَنْ ثُبُوتِهِ يُعَدُّ حِمَاقَةً كَمَنْ يَسْتَهْزِئُ بِقَانُونِ الْمُرُورِ مُنْكَرًا لَهُ، لَكِنَّهُ سَيَدْفَعُ ثَمَنَ اسْتِهْزَائِهِ عِنْدَ تَسْيِيدِ الْقَوَاتِيرِ. لَكِنَّكَ لَسْتَ اللَّهُ! كَمَا أَنَّ الْجَزَالَ لَيْسَ الْقَانُونُ. تُرِيدُونَ قَطْعَ الصِّلَةِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِقَوْلِكُمْ: أَنْتَ لَسْتَ اللَّهُ. وَمِنْهَا الْحِجَابُ، : لَا حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا مَرَارًا مَا الْمَشْكَلَةُ فِي الْحَرِيَّةِ الْجَنَسِيَّةِ؟ أَتَرَكَ عَنْكَ خِرَافَاتِكَ الْمُتَخَلِّفَةَ وَانْظُرْ إِلَى الْحَيَاةِ كَمَا هِيَ جَمِيلَةٌ لَمْ تَحْرَمْ نَفْسَكَ مِنَ الْمَتَاعِ لِتَرَاثِ مَغْبِرِ أَلْغَى الْعَقْلِ؟ وَأَصْبَحْتُ لَا أَرَى أَمَامِي إِلَّا وَعَاءً جَلْدِيًّا يُعْطِي مَا لَوْ ظَهَرَ لَسَاءَ كُلِّ عَيْنٍ تَبْدُلُ كُلَّ جُهِدٍ لِنَجْمِيلِهِ وَيَأْبَى إِلَّا أَنْ يُفَرِّزَ مَا يَشِينُ! لَقَدْ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِشَوْقِنَا إِلَى الْحُورِ الْعِينِ، لِأَنَّ ذَلِكَ الشَّوْقَ يَجْعَلُنَا أَوْفِيَاءَ لِلْحُبِّ الطَّاهِرِ أَمَامَ ذَلِكَ اللَّحْمِ الْعَارِي الرَّخِيسِ الَّذِي نَرَاهُ كُلَّ لَحْظَةٍ، ثُمَّ تَمَلَّكَنِي الدَّهْشَةُ حِينَ قَالَ لِي هُوَ نَفْسُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ: مَا بِالْكُمُ تَكْثُرُونَ الْحَدِيثَ عَنِ الْحُورِ الْعِينِ؟ مَا هَذَا التَّفَكِيرُ الْجَنَسِيُّ الْمُسَيِّطُ عَلَيْكُمْ؟! كَمْ هُوَ مُثِيرٌ لِلسُّخْرِيَّةِ حِينَ نَرَى مَنْ يَقْضِي لِيَالِيَهُ الْحَمْرَاءَ تَسْكُبُ الْعَاهِرَاتُ عَلَى رَأْسِهِ كُؤُوسُ الْخَمْرِ ثُمَّ يُصْبِحُ وَاصِفًا الشَّوْقَ إِلَى الْحُورِ بِالْإِنْحِطَاطِ الْجَنَسِيِّ! قَالَ لِي أَحَدُ الْمُحَقِّقِينَ فِي السِّنِينَ الْأُولَى مِنَ الْأُسْرِ: سَنَصْنَعُ نَادِيًا لِنَيْلِيَا فِي كُلِّ بَيْتٍ ثُمَّ نُوْدِعُهَا فِي كُلِّ جَيْبٍ! لَمْ أَفْهَمْ مَا قَالَهُ حِينَهَا، لَكِنِّي قُلْتُ لَهُ: زَرَعُ اللَّهِ لَا تَحْصُدُهُ الْمَنَاجِلُ، أَنْتُمْ فَاشِلُونَ وَسَتَنْظَلُونَ كَذَلِكَ لِأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ تَغْطِيَةَ نُورِ الشَّمْسِ بِمِنْخَلٍ. كَانَ يَنْظُرُ إِلَيَّ بِحَنِقٍ بَالِغٍ، وَتَوَالَتْ ضَرْبَاتُ الْإِنْحِلَالِ وَتَرْتَحَتِ الْقُلُوبُ وَتَسَاقَطَ الْمُتَسَاقِطُونَ سُكَارَى بِنَشْوَةِ الْحَرَامِ يَفْرَعُونَ كُؤُوسَ الْغَوَايَةِ مَعَ الشَّيْطَانِ يُحَاوِلُ بَعْضُهُمُ النُّهُوضَ فَتَخُونُهُمْ قُوَاهُمْ الْخَائِرَةُ لِيَسْقُطُوا فِي ثَقَلٍ مِنْ جَدِيدٍ، وَمَا هِيَ إِلَّا جَوْلَةٌ حَتَّى رَجَعَ النَّاسُ إِلَى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. لَقَدْ كَانَتْ حَسَنَاءَ مُتَعَجِّجَةً مُتَدَلِّلَةً، فَإِنْ آنَسَتْ تَجَاوُبًا وَإِلَّا تَخَالِسُهُ النَّظْرَةُ بَعْدَ النَّظْرَةِ. بَلْ كَانَتْ ظَلِيمَةً شَارِدَةً فَضُولِيَّةً تُرِيدُ التَّعَرُّفَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءِ الَّذِينَ ثَرَّرَتْ حَوْلَهُمُ الْعَالَمَ كُلَّهُ. كَانَتْ صُورَتُهَا تَتَبَدَّلُ، فَإِنْ قَوِيَ إِيْمَانُ الْأَسِيرِ رَأَاهَا لِبَؤَةً، كَانَتْ تُرْسِلُ شَوَاطِظَ نَظَرَاتِهَا أَحْيَانًا فَتَعْمَلُ كُلَّهْبٍ يُذِيبُ فِي الْقُلُوبِ مَعْدِنَ الْإِيْمَانِ، فَتَغْضِي طَرَفَهَا عَنْهُ تَارَةً وَتُرِيكُهُ بِنَظَرَتِهَا الْمُتَرَدِّدَةَ تَارَةً، وَتَارَةً تَتَوَالَى نَظَرَاتُهَا كَقَطَرَاتِ النَّدى الَّتِي تَتَتَابَعُ عَلَى الصَّخْرَةِ حَتَّى تَفْلُقَهَا. وَحِينَ تَجِدُ عَيْنًا قَدْ ضَعُفَتْ يَدُ الْإِيْمَانِ عَنْ الْجَامِيَا بِأَدْلَتِهِ نَظْرَةً نَاعِمَةً مُتَسَائِلَةً عَنْ سَبَبِ التَّحْدِيقِ بِهَا، لَكِنَّ ابْتِسَامَتَهَا الْهَادِيَّةَ حَوَّلَتْ السُّؤَالَ إِلَى إِفْرَارٍ وَدَعْوَةٍ لِلِاسْتِمْرَارِ. كَانَتْ تُمْسِكُ قَارُورَةَ الْمَاءِ فَتَتَصَنَّعُ الشَّرْبَ بِهَيْئَةٍ تُحَوِّلُ الْقَارُورَةَ إِلَى عَاشِقٍ تُدَاعِبُهُ بِلِسَانِهَا وَشَفَتَيْهَا وَتُحَوِّلُ الْمَاءَ إِلَى شَهْوَةٍ تَسْرِي فِي جَسَدِهَا وَجَسَدٍ مَنْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ فِي فَخِّ عَيْنَيْهَا، ثُمَّ تَضُمُّ الْقَارُورَةَ إِلَيْهَا ضَمَّةً تَحْمِلُ أَلْفَ مَعْنَى مُودِعٍ فِي كِتَابٍ يَضِيغُ الْقَارِئُ بَيْنَ سَطُورِهِ وَيَتَجَسَّدُ الشَّيْطَانُ بِالْقَارُورَةِ دَاعِيَا هَذَا الْمُتَعَبِّ لِيَأْخُذَ مَكَانَهُ قَبْلَ أَنْ يَذُوبَ بَيْنَ يَدَيْهَا، ثُمَّ يَقُولُ سَاحِرًا مِنْ هَذَا الَّذِي تَوْهَمُ الْحُبُّ فِي قَلْبِ حَقُودٍ وَاللَّذَّةُ فِي كَيْةِ نَارٍ وَالشِّقَاءُ فِي سَمِّ نَاقِعٍ. كَانَتْ تَتَبَخَّرُ فِي الْعَنْبَرِ لِلْمُرَاقَبَةِ بَيْنَمَا كَانَ لِسَانُ حَالِهَا يَقُولُ: رَاقِبُونِي! ثُمَّ تَنْصَرِفُ وَقَدْ تَرَكَتْ بَعْدَهَا قَلْبًا يَتَوَجَّعُ وَصَدْرًا يَتَنَهَّدُ وَرُوحًا تَضْطَرِبُ وَنَفْسًا تَرْتَعِشُ وَأَحْشَاءَ تَسْتَعِرُّ بِنَارٍ لَا تَرَى،